

تأليف
مراد بن أحمد عطاسي

الطبعة الأولى

١٤٣٥ - ٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق السماء، وجعل في الأرض الرجال والنساء، وأرسل إليهم الرسل والأنبياء، فكان الناس علىٰ قسمين: صالحين سعداء، ومفسدين أشقياء، وأصلي وأسلم علىٰ من جاء بالقرآن وفيه من قصص هؤلاء وهؤلاء، إعلامًا بحال الفريقين، وذلك أعظم في باب الاقتداء، وقد قيل: من لم يعرف الخير من الشر وقع في الضراء.

وعلىٰ آله الأتقياء، وصحابته الأوفياء، ومن سار علىٰ دربهم إلىٰ يوم الجمع والالتقاء.

وبعد:

فإنَّ القرآن الكريم قد ورد فيه كثير من قصص النساء، الصالحات والطالحات علىٰ السواء، وقد أحببت في هذه الرسالة العجالة أن أتحف النسوان بفوائد من قصة امرأة عمران، ذاكرًا ما قاله المفسِّرون العلماء، وما استنبطه الأئمة الفقهاء، وهي حِكَم نبيلة، وأحكام جليلة، لا يوازيها أيُّ عطاء، وينبغي أن يكشف عنها كل غطاء؛ إذ الحاجة إليها شديدة، بل إنها في هذا الزمان متحتِّمة أكيدة، لما صار إليه نساؤنا من ضعف في الإدراك، وجهل بالمقاصد ... المقاصد التي لأجلها خلقنا، ومن أجلها شرع النكاح، ومن أجلها وجدت الذرية والأبناء، وجماع هذا كله هو

جهلهن بمفهوم الصلاح، فأردت في هذا الكلمة اليسيرة أن ألفت أنظارهن لَفْتًا، وأذكر من فوائد تلك القصة نُكَتًا، تعرفهن بأسّ الصلاح، ومبادئ الإصلاح، فجاءت مرتبة علىٰ: مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة.

فالتمهيد: في بيان أهمية التأمل في القصص القرآني، واستخلاص الفوائد، والعبر منها.

الفصل الأول: آيات القصة وسياقها.

الفصل الثاني: مباحث في ألفاظ آيات القصة.

الفصل الثالث: في معاني الآيات.

الفصل الرابع: في الأحكام والفوائد المستنبطة.

خاتمة: في الدعوة إلىٰ الاشتغال بكتاب الله، وإعمار الأوقات بدرسه.

والله الموفق لا ربَّ سواه.

التمهيد

إنَّ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ما قصَّ علينا في القرآن الكريم ذلك القصص العظيم إلا لأخذ الفوائد والعبر، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [سورة يوسف].

قال العلَّامة السعدي: «أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشَّر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة»[١].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص ٣٨٢).

بل إن في القصص القرآني هدىٰ يهتدي به المسلم إلىٰ طريق الصلاح، وفيه رحمة إذ يُخلِّص المسلمُ نفسَه مما قد يعرِّضه للعقوبة، وفي هذا قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تهتدي به قلوبهم من الغي إلىٰ الرشاد، ومن الضلالة إلىٰ السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد»[١].

قال العلَّامة السعدي في بيان فائدة القصص القرآني: «ومن الفائدة والحكمة في قصِّه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء: أن نحبهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٥٣٥).

وفقهم، وأن لا نَزال نُزْرِي أنفسنا بتأخرنا عنهم، وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضا من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فَلِلَّهِ ما أعظم جوده وكرمه، وأكثر فوائد معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف، إلا أن أذكارهم مخلدة، ومناقبهم مؤبدة، لكفىٰ بذلك فضلا»[(١)].

فإذا عرفت هذا أيها المسلم؛ كان عليك أن تعنىٰ بهذا القصص القرآني، وتتأمل فيه، وتنظر ما كتبه العلماء عليه، فإن الإنسان لن يضل أبدًا ما تمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما قال ﷺ: «**إِنِّي قَدْ خَلَّفْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ**

---

(١) «تفسير السعدي» (ص ١١٢)، وقد ذكر الشيخ الطاهر بن عاشور في المقدمة السابعة من مقدمات تفسيره عشرة فوائد كاملة للقصص القرآني. انظر: «مختصر مقدمات التفسير» لصالح العود (ص ٦٥).

تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا أَبَدًا مَا أَخَذْتُمْ بِهِمَا ـ أَوْ عَمِلْتُمْ بِهِمَا ـ: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي»[1].

وليست المرأة بمعزل عن هذا الخطاب، بل هي داخلة فيه، فلذلك عليها هي كذلك أن تعنىٰ بكتاب الله عز وجل وما جاء فيه من قصص وأحكام رشيدة، توصلها إلىٰ الحياة السعيدة.

وها أنا ذا أقرب إليك قصة عظيمة، حوت فوائد بديعة، وقواعد جليلة، يرتوي منها الغليل، ويشتفىٰ بها العليل، وهي قصة «امرأة عمران».

فإلىٰ بيانها ـ والله المستعان ـ.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٩٤)، والبيهقي (١٠/ ١١٤)، والدارقطني (٤/ ٢٤٥)، وله شواهد كما في «الصحيحة» للألباني (٤/ ٢٥٥ـ٢٥٧).



الفصل الأوَّل
في آيات القصَّة وسياقها

قال تعالىٰ: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا
فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا
قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ
كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ
ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا
وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ
يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ
حِسَابٍ ٣٧ ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ].

لم ترد قصَّة امرأة عمران إلَّا في هذا الموضع من

القرآن، وهي آياتٌ مدنيَّـةٌ؛ لأنَّها جاءت في سياق الـرَّدِّ علىٰ وَفْد نَجران ـ وهم نصارىٰ ـ لمَّا جعلوا يُحاجُّون النَّبيَّ ﷺ في عيسىٰ عليه السلام، فأنزل الله تعالىٰ صَدر سورة آل عمران إلىٰ بضع وثمانين آيةً منها[1].

فهذه الآيات مسوقةٌ للردِّ علىٰ النَّصارىٰ في ضلالهم؛ حيث قالوا: إنَّ عيسىٰ إلهٌ أو هو ابن الله![2]

فذكر الله سبحانه منشأ عيسىٰ عليه السلام ابتداءً بقصَّة جدَّته امرأةِ عمران ـ والدة مريم ـ، ثمَّ ذكر قصَّة أمِّه مريم، وكيف كفلها زكرياء عليه السلام، إلىٰ أن وصل إلىٰ قصَّة ولادة عيسىٰ عليه السلام، وبيان أنَّه عبدٌ مخلوقٌ من عباد الله، ثمَّ قال بعد ذلك كلِّه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ

---

(١) انظر «فتح القدير» للإمام الشوكاني (١/ ٥٢٣)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٦٦).

(٢) «تفسير السعدي» (ص ١١٥).

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٢﴾ [سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ] أي: هذا الَّذي قصصناه عليك يا محمَّد! في شأن عيسىٰ هو الحقُّ الَّذي لا معدل عنه، ولا محيد، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: عن هذا إلىٰ غيره، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ أي: مَن عدل عن الحقِّ إلىٰ الباطل فهو المفسد، والله عليمٌ به، وسيجزيه علىٰ ذلك شرَّ الجزاء، وهو القادر الَّذي لا يفوته شيءٌ سبحانه، ونحمده ونعوذ به من نقمه[1].

❑❑❑

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧١).



المبحث الأوَّل:

في «إِذْ» من قوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ ﴾.

اختلف فيها علىٰ أقوالٍ، نذكر منها ثلاثةً[1]:

١ . أنَّها صِلةٌ[2]، والمعنىٰ: «قالت امرأة عمران».

(١) انظر هذه الأقوال الثَّلاثة وغيرها في «التفسير الكبير» للفخر الرَّازي (٢/ ٢٠٢).

(٢) الصَّواب: أن يعبَّر في القرآن عن الأحرف الزَّائدة بـ «صلة»؛ إذْ ليس في القرآن شيءٌ زائدٌ، وقد نبَّه لهذا ابن هشام في «قواعد الإعراب».

قال الإمام الزَّواوي ـ ناظم «قواعد الإعراب» ـ: =

قاله أبو عبيدة.

٢. أنَّها متعلِّقة بفعل محذوف، أي: «اذكر إذ قالت امرأة عمران». قاله الأخفش والمبرد[١].

٣. أنَّها متعلِّقة بـ«اصطفىٰ» أي: «اصطفىٰ آل عمران علىٰ العالمين إذ قالت امرأة عمران».

قاله الزَّجَّاج، وردَّه ابنُ الأنباري بأنَّ الله قَرَنَ اصطفاء آل عمران باصطفاء آدم ونوحٍ.

وردَّه الطاهر ابن عاشور كذلك بقريبٍ من ردِّ ابن الأنباري وأوضح منه؛ فقال: «لأنَّ هذا خاصٌّ بفضل آل عمران، ولا علاقة له بفضل آدم ونوحٍ وآل إبراهيم».

= وَلْتَجْتَنِبْ يَا صَاحِ أَنْ تَقُولَ فِي
حَرْفٍ مِنَ الْقُرْآنِ زَائِدٌ تَفِي

انظر: «القبس النَّحوي في شرح نظم الزَّواوي» لحسين السِّباعي (ص ١٠٤)، وانظر: «المغني» لابن هشام (ص ٨٨).

(١) فتح القدير للإمام الشوكاني (١/ ٥٥٥).

والصَّواب من هذا الأقوال: القول الثَّاني.

أمَّا القول الثَّالث فقد بان لك ضعفُه ممَّا قاله ابن الأنباري وابن عاشور ـ رحمهما الله ـ.

وأمَّا القول الأوَّل ـ وهو كونها صلةً ـ؛ فليس بالقول المرضيِّ عند علماء العربيَّة مجيءُ «إذْ» صلةً بمعنىٰ أنَّها زائدةٌ، ولذلك ردَّ هذا القولَ الزَّجَّاجُ، وذكره ابنُ هشام في «الْمُغْنِي» عن أبي عبيدة وابن قتيبة، وضعَّفه.

فبان أنَّ الصَّواب هو كونها متعلِّقةً بمحذوفٍ، فهي مفعولٌ به لـ«اذْكُرْ»، وليست ظرفًا له علىٰ ما قرَّره ابن هشام في «المغني»[1]، والله أعلم.

✍ الْمَبْحَثُ الثَّانِي:

في لفظ ﴿مُحَرَّرًا﴾ من قوله تعالىٰ حكايةً عنها: ﴿مَا

---

(١) انظر: «مغني اللَّبيب» لابن هشام الأنصاري (ص ٨٨).

﴿فِي بَطۡنِي مُحَرَّرًا﴾.

هو منصوبٌ علىٰ الحال[1]، وهو مأخوذٌ من الحرِّيَّة ضدُّ العبوديَّة، أي: هو خالص لله ﷻ لا يشوبه شيءٌ من أمر الدُّنيا، وهو معروفٌ في اللُّغة، يقال لكلِّ ما خلُص: «حُرٌّ»، وَ«مُحَرَّرٌ» بمعناه. قال ذُو الرُّمَةِ:

وَالْقُـرْطُ فِي حُرَّةِ الذِّفْرَىٰ مُعَـلَّقُهُ
تَبَاعَدَ الْحَبْلُ مِنْهُ فَهْـوَ يَضْطَرِبُ

وطِينٌ حرٌّ: لا رمل فيه[2].

✍ الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ:

في لفظة ﴿أُعِيذُهَا﴾ من قوله تعالىٰ حكاية عنها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾.

---

(١) «فتح القدير» (١/ ٥٥٥)، و«جامع الأحكام» للقرطبي (٥/ ١٠٠).

(٢) انظر: «جامع الأحكام» للقرطبي (٥/ ١٠٦).

«أعيذها» أي: أحصِّنها وأطلُب لها ولذريَّتها الإعاذة، وفي أصل الإعاذة قولان:

١. أنَّها مأخوذةٌ من السِّتر، تقول العرب للبيت الَّذي في أصل الشَّجرة وقد استتر بها: «عُوَّذ»، فهو لما عاذ بالشَّجرة واستتر بأصلها وظلِّها؛ سمَّوه عوَّذًا، فكذلك العائذ قد استتر من عدوِّه بمن استعاذ منه.

٢. أنَّها مأخوذةٌ من قولهم «لحمٌ عُوَّذ»، إذا كان ملتصقًا بالعظم، وكذلك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به واعتصم به ولزمه.

قال الحافظ ابن القيِّم: «والقولان حقٌّ، والاستعاذة تنتظمهما معًا؛ فإنَّ المستعيذ مستتِرٌ بمعاذه، متمسِّكٌ به معتصِمٌ به، قد استمسك قلبُه به ولزمه...»[(١)].

---

(١) «البدائع» (٣/ ٢٠٠).

✍ الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ:

في لفظة ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾.

«الرَّجيم» أي: المطرود، وأصل الرَّجم: الرَّمي بالحجارة[1]، وقيل: سمِّي رجيمًا؛ لأنَّه يُرجَم بالشُّهُب من السَّماء، فهو فعيلٌ بمعنىٰ: مفعول، أي: مرجوم[2].

✍ المبحث الخامس:

في لفظة «**القبول**» في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

«الباء» هنا: صلةٌ، أي: تقبلها قبولًا[3]، غاية ما في الأمر أنَّ المصدرَ حُذفت منه زوائدُه، فلم يقل «تقبُّلًا» أو «تقبيلًا»، ومثله «نباتًا» الأصل «إنباتًا»، والعرب تُخرج

(١) «حاشية الصَّاوي علىٰ الجلالين» (١/ ٢٠٣).

(٢) «حاشية الصَّاوي» (١/ ٢٠٢).

(٣) «حاشية الصَّاوي» (١/ ٢٠٢).

المصدر أحيانًا علىٰ غير صفة الفعل، والشَّواهد علىٰ هذا كثيرةٌ كما قال في «المنار»[1]، ومن شواهده ما ذكره القرطبي في «الجامع»[2]:

أَكُفْرًا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي

وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمِائَةَ الرِّتَاعَا

الأصل: إعطائك.

قال القرطبي: «والأصل في «القبول» الضمُّ؛ لأنَّه مصدر مثل: «الدُّخول» و«الخُروج»، والفتح جاء في حروفٍ قليلةٍ مثل: «الوَلوغ» و«الوَزوع»، هذه الثَّلاثة لا غير، [الثَّلاثة أي: بإضافة القبول هو الفتح]، وأجاز الزَّجَّاجُ الضمَّ في القبول»[3].

---

(١) «تفسير المنار» لمحمَّد رشيد رضا (٣/ ٢٥٧).

(٢) «الجامع» (٥/ ١٠٥).

(٣) «الجامع» (٥/ ١٠٦).



الفصلُ الثالث
في معاني الآيات

امرأة عمران هي حَنَّة بنت فاقوذا، كما قاله جمع من المفسِّرين[1]، وهي جدَّة عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهي أمُّ مريم كما يدلُّ له[2] قوله تعالىٰ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، ثمَّ ذكر قصَّة مريم بعد ذلك.

قيل: مات زوجها وتركها حُبلىٰ، فنذرت حَبْلها ذلك

---

(١) «روح البيان» (٢/ ٣٣)، «محاسن التَّأويل» جمال الدين القاسمي (١/ ٥٦) وغيرها.

(٢) هذا جاء عن جماعة من المفسِّرين، كالكلبي ومحمَّد بن إسحاق وغيرهما. انظر: «معالم التنزيل» للبغوي (١/ ٤٣١).

محرَّرًا، أي: مخلصًا لخدمة بيت المقدس، وكانوا ينذرون ذلك إذا كان المولود ذكرًا[1].

وإطلاق المحرَّر علىٰ هذا المعنىٰ إطلاقُ تشريفٍ، فكأنَّه حرِّر من أسر الدُّنيا وقيودها إلىٰ حرية عبادة الله تعالىٰ[2]، وهي لم تكن تعلم أتَلِدُ ذكرا أم أنثىٰ؟ فلذلك قالت: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرًا﴾، ولم تنصَّ علىٰ ذكورته.

وأمَّا قولها: «محرَّرًا»، والتَّحرير لا يكون إلَّا في الذُّكور؛ ففي توجيهه عند علماء التَّفسير قولان:

١. أنَّها كانت تظنُّه ذكرًا. قاله الطَّاهر بن عاشور[3].

٢. أنَّها جزمت الدَّعوة رجاءً منها أن يكون ذكرًا.

---

(١) «التَّحرير والتَّنوير» (٢/ ٢٣٢).

(٢) «التَّحرير والتَّنوير» (٢/ ٢٣٢).

(٣) «التَّحرير والتَّنوير» (٢/ ٢٣٢).

قاله ابن عطيَّة في «المحرَّر الوجيز»[1].

﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا﴾ أي: ولدتها إذا هي جاريةٌ؛ فقالت ـ وكانت ترجو أن يكون غلامًا ـ ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وفي هذه المقالة منها جملة لطائف ستأتي في فصل الفوائد ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ.

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾، ففيه محملان؛ لأنَّ فيه قراءتين:

١. قراءة الجمهور بسكون التَّاء «وضَعَتْ»؛ فهو من كلام الله علىٰ هذه القراءة، والمعنىٰ: أنَّ الله هو العالم بهذا الشَّيء الَّذي وضَعَتْ، وما عَلَّق به من العجائب وعظائم الأمور؛ لأنَّ الله سيجعله وولَدَه آيةً للعالَمين[2].

---

(١) «المحرَّر الوجيز» لابن عطية الأندلسي (٢/ ٤٢٤).

(٢) «روح البيان» (٢/ ٣٥).

٢. قراءة ابن عامر وأبي بكر عن عاصم ويعقوب بضمِّ التَّاء «**وَضَعْتُ**»، علىٰ أنَّ هذا من كلام امرأة عمران، فهي تعتذر عن نذرها الَّذي نذرته بهذا الخبر؛ لأنَّ الأنثىٰ لا تصلح لخدمة بيت المقدس، فالخبر هنا للتَّحسُّر[١].

وزادت هذا التَّحسُّر تأكيدًا بقولها: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾؛ لأنَّ الذكر له القدرة والقوة علىٰ ما يراد منه من القيام بخدمة بيت المقدس[٢]، وقيل لخلوِّه من الحيض والنِّفاس[٣].

ويجوز أن يكون ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ من كلام الله تعالىٰ، أي: ليس الذَّكر الَّذي رغبتِ فيه بمساوٍ للأنثىٰ

---

(١) «التَّحرير والتَّنوير» (٢/ ٢٣٣).

(٢) «قصص الأنبياء» للسعدي (ص ١٨٣)، «حاشية الصَّاوي علىٰ الجلالين» (١/ ٢٥٣).

(٣) «حاشية الصَّاوي علىٰ الجلالين» (١/ ٢٥٣).

الَّتي أعطيتكِ إيَّاها ـ لو كنتِ تعلمين شأن هاته الأنثىٰ ـ، وعلىٰ هذا مشىٰ في «الكشَّاف»[1].

فلمَّا تحسَّرت علىٰ فوات نذرها، استدركت علىٰ نفسها تسميةَ هذه المولودة «مريم»؛ لأنَّ معناها في لغتهم «العابدة»[2]، ودعت اللهَ أن يعيذها ويحفظها من الشَّيطان الرَّجيم وذريَّتها كذلك، فاستجاب لها ربُّها، وأنبتَ ابنتَها «مريم» نباتًا حسنًا.

قال المفسِّرون: إنَّ هذا الإنبات الحسن هو أنَّه ربَّاها ونمَّاها، كما يُربَّىٰ النَّباتُ في الأرض الصَّالحة بتعهُّد الزُّرَّاع إيَّاه بالسَّقي وقلع ما يُضعِفه من النَّبات

---

(١) «الكشَّاف» للزمخشري (١/ ٣٨٤). وتعقَّب الشَّيخُ الطَّاهر بن عاشور هذا القول، وقال: «الأوَّل هو الأفضل».
انظر: «التَّحرير والتَّنوير» (٢/ ٢٣٥)، «محاسن التَّأويل» للقاسمي (١/ ٥٩) وغيره.

(٢) «محاسن التَّأويل» للقاسمي (١/ ٥٩) وغيره.

الطُّفَيلي[1].

وهذه التَّربية تشمل التَّربية الرُّوحيَّة والجسديَّة، فكانت هذه المولودة ـ وهي مريم ـ خيرَ لداتها جِسْمًا وقوَّةً، كما نماها صلاحًا وعفَّةً وسدادَ رأيٍ، وهذا حصل بأن جعلها اللهُ تحت كفالة نبيٍّ صالحٍ، وهو زكرياء[2].

وهذا حصل بأن جعلها اللهُ تحت كفالة نبي صالح وهو زكرياء عليه السلام، وهو زوج خالتها[3].

﴿وَكَفَّلَهَا﴾ فيه قراءتان[4]:

١. قراءة الجمهور: ﴿كَفَلَهَا﴾ ـ بتخفيف الفاء ـ أي: تولَّىٰ كفالتها.

---

(١) «تفسير المراغي» (٣/ ١٤٦).
(٢) «قصص الأنبياء» للسعدي (ص١٨٤).
(٣) انظر: «المحرَّر والوجيز» (١/ ٤٢٤)، وصحَّحه ابن عاشور في «التَّحرير والتَّنوير» (٢/ ٢٣٥).
(٤) «التَّحرير والتَّنوير» (٢/ ٢٣٥).

٢. قراءة حمزة وعاصم والكسائي وخلف ﴿كَفَّلَهَا﴾ ـ بتشديد الفاء ـ أي: جعله اللهُ كَافِلًا لها.

وعلىٰ كلٍّ؛ فهذه قصَّةٌ عظيمةٌ نخلُص منها إلىٰ فوائد جليلةٍ، وها هي بين يديك، والله الموفِّق لا ربَّ سواه.

❒❒❒



الفصل الرَّابع
الأحكام والفوائد
المستنبطة من القصَّة

هذه قصَّةٌ عظيمةٌ، وفيها فوائد جليلةٌ، ما أحوج نساء هذا الزَّمان إلىٰ معرفتها، والعمل بها، ولنذكر شيئًا من ذلك، والله الموفِّق لا ربَّ سواه:

١. فيها حرص النِّساء الصَّالحات علىٰ ما ينفعهن في الدُّنيا والآخرة، فهذه امرأة عمران نذرت مولودَها لخدمة بيت المقدس، وذلك من أعظم الأعمال وأشرفها عندهم، مع ما فيه من الخير الأُخرَوي، فتأمَّلي ـ يا رعاكِ الله! ـ هذا النُّضج في الإدراك، والفقه في المقاصد، وقارِني به أحوال

نساء هذا الزَّمن عند ظهور الحمل وبعده، وما تتمَنَّاه كلُّ واحدةٍ أن يصير إليه مولودها؛ تَرَين بعينِك سفاهةَ تفكيرِهنَّ، وضعف إدراكهنَّ، والواجب علىٰ الإنسان أن يكون عالي الهمَّة، نافذ الرُّؤية، وعلىٰ قدر الهمَّة، تأتي الأُمنِية، كما قال المتنبِّي:

عَلَىٰ قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِـمُ
وَتَـأْتِي عَلَىٰ قَدْرِ الْكِرَامِ الْـمَكَارِمُ
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا
وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ(١)

قال العلَّامة جمال الدِّين القاسمي نقلًا عن بعضهم: «وهكذا الواجب علىٰ كلِّ امرئٍ إذا طلب ولدًا، أن يطلُب للوجه الَّذي طلبت امرأةُ عمران وزكريَّاء، حيث قال:

---

(١) «ديوان المتنبي» (٢/ ٢٠٢ـ مع شرح اليازجي).

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ]، وما سأل إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [سُورَةُ الصَّافَّاتِ]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [سُورَةُ الفُرْقَانِ].

هكذا الواجب أن يطلب الولد، لا ما يطلبون من الاستئناس والاستنصار والاستعانة بأمر المعاش»[(١)].

بل قد ظهر في زماننا هذا أناسٌ ليس لهم أيُّ مقصد من طلب الأولاد، فهم يلِدون لأنَّهم يلِدون، ولولا ذلك ما ولَدوا، وهذه بهيمِيَّةٌ محضةٌ، لا تمُتُّ إلىٰ البشريَّة بصِلةٍ، بَلْهَ إلىٰ ما جاء به هذا الدِّين المطهَّر!

٢. أنَّ النَّذر ما زال مشروعًا في الأمم السَّابقة، والنَّبيُّ ﷺ

---

(١) «محاسن التَّأويل» (٢/ ٥٧).

قال فيه كلمةً جامعةً للصَّحيح النَّافذ وللباطل الفاسد، كما في حديث عائشة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ**»[1][2].

وحقيقة النَّذر: هو التزام الفعل بالقول ممَّا يكون طاعةً لله عَزَّ وَجَلَّ من الأعمال قربة.

قاله ابن العربي في «أحكام القرآن»[3].

وهل يجوز لامرأةٍ أن تنذر مثل نذر امرأة عمران؟

قال الرَّازي: «هذا النَّوع من النَّذر كان في شرع بني إسرائيل، وغير موجودٍ في شرعنا، والشَّرائع لا يمتنع اختلافها في مثل هذه الأحكام»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٦٦٩٦).

(٢) انظر: «قصص الأنبياء» السعدي (ص ١٩٥).

(٣) «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٢٨٨).

(٤) «التفسير الكبير» (٢/ ٢٠٣).

فردَّ المسألة إلىٰ أصلٍ مختلفٍ فيه بين العلماء، وهو «حكم استنباط الأحكام الشَّرعيَّة من شرع ما قبلنا»[1].

(١) قال الشنقيطي: «تحقيق المقام في هذه المسألة أنَّ لها ثلاث حالاتٍ:
الأولىٰ: أن يكون شرع من قبلنا شرعًا لنا بلا بخلافٍ، وهي إذا ثبت في شرعنا أنَّه كان شرع من قبلنا، ثمَّ نُصَّ لنا في شرعنا أنَّه شرعٌ لنا كالقصاص.
الثَّانية: ليس شرعًا لنا بلا خلافٍ، وتحتها صورتان: إحداهما: ما لم يثبُت بشرعنا أصلًا، ولو زعموا أنَّه من شرعهم. والأخرىٰ: ما ثبت بشرعنا أنَّه كان شرعًا لهم، ونصَّ لنا علىٰ أنَّه ليس شرعًا لنا.
الثَّالثة: وهي محلُّ خلافٍ، وهي ما إذا ثبت بشرعنا أنَّه كان شرعًا لمن قبلنا، ولم ينصَّ في شرعنا علىٰ أنَّه مشروعٌ لنا، ولا غير مشروع، والجمهور علىٰ أنَّه شرعٌ لنا خلافًا للشَّافعي» ملخَّصًا من «نثر الورود» (١/ ٣٧٣).
وانظر: «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (١/ ١٤٦)، «شرح التَّنقيح» للقرافي (ص ٢٢٣)، «نهاية السول» للإسنوي (٢/ ٢٩٣)، «مناهج العقول» للبدخشي (٢/ ٢٩١)، «الإبهاج» لابن السُّبكي (٢/ ٢٧٦)، «إرشاد الفحول» للشَّوكاني (ص ٣٩٩)، «مذكرة الأصول» للشنقيطي (ص ١٦١).

أمَّا ابن العربي المالكي فقرَّر أنَّه لا يجوز مثل هذا النَّذر؛ لأنَّ الولَد حرٌّ، فلا يصحُّ أن يكون مملوكًا لأحد الوالدين يجعله تحت نذره[1]، وهذا أقرب ـ والله أعلم ـ.

٣. في قولها فيما جاء في الآية الكريمة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥﴾: دعاءٌ وتوسُّلٌ إلىٰ الله بأسمائه الحسنىٰ، وصفاته العلىٰ، كما قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٨٠﴾ [سُورَةُ الأَعْرَافِ].

وهكذا يجب علىٰ العبيد؛ تجريد التَّوحيد، ونبذ الشِّرك والتَّنديد، فلا يدعون إلَّا الله وحده لا شريك له، في حالة السَّعة والرَّخاء، وفي حال الشِّدَّة والبأساء، وانظري ـ يا رعاكِ الله! ـ إلىٰ ما صار عليه بعض نساء اليوم: من دعاء

(١) «الأحكام» لابن العربي (١/ ٢٩٠).

غير الله ﷻ، والذَّهاب إلىٰ القبور ودعاء الموتىٰ، والنَّذر والذَّبح لهم حتَّىٰ يرزقن الأولاد، فهذا هو الشِّرك عينه، والجاهليَّة نفسها، بل هنَّ في هذا المقام، أسوء حالًا من مشركي الجاهليَّة الأوائل؛ لأنَّ مشركي الجاهليَّة كانوا يخلصون الدُّعاء لله وحده إذا ألمَّت بهم الشَّدائد، ونزلت بهم المصائب. قال تعالىٰ عنهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [سُورَةُ يُونُسَ].

وأمَّا هؤلاء الأناسي[1]؛ فقد صاروا يدعون غير الله عند وقوعهم في الضَّرَّاء والمعاطب، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

---

(١) الأناسيُّ: جمع إنسانٍ في قول سيبويه، وعن المبرِّد أنَّه جمع إنسيٍّ. انظر «المحرَّر الوجيز» لابن عطية (٦/ ٤٤٤).

واعتبري ـ أَيَّتُها المرأة المسلمة! ـ بحال الصَّالحين الَّذين قصَّ اللهُ علينا أحوالهم في كتابه؛ فهذه امرأة عمران تدعو الله ﷻ وحده، وتتوسَّل إليه بأسماء وصفاته، ولم تذهب إلىٰ قبور الصَّالحين والأنبياء متوسِّلةً بهم إلىٰ ربِّ العالمين، وهذا نبيُّ الله زكرياء عليه السلام دعا ربَّه وحده، فرزقه اللهُ ولدًا علىٰ كبر سنِّه، وعُقْر زوجه. قال الله تعالىٰ في ذلك:

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ].

٤. قولها كما في الآية الكريمة: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾،

إنَّما أكَّدَت الكلام بـ«إن»؛ لأنَّه كان علىٰ خلاف ما كانت ترجوه؛ إذ كانت ترجو أن يكون ذكرًا، فإذا هو أنثىٰ، فقالت لذلك مخاطبةً نفسها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وفي هذا الخطاب من الرَّوعة والتَّعجُّب لولادتها أنثىٰ ما فيه، حتَّىٰ إنَّها صارت تغالط نفسها بقولها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وهذا تحسُّرًا علىٰ ما فاتها من تحقيق نذرها: وهو جعل مولودها محرَّرًا لخدمة بيت المقدس، وليس هو منها كراهيَّة للأنثىٰ، كما قد يتوهَّمه الواهم[1].

٤. قولها: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ هذا لأنَّ الذَّكر قادرٌ علىٰ خدمة البيت، والأنثىٰ لا تقوىٰ علىٰ ذلك[2]، وإلَّا ففيما رزقه اللهُ خيرٌ، وهو العليم القدير، كما قال سبحانه:

---

(١) انظر: «التَّحرير والتَّنوير» (٢/ ٢٣٢).

(٢) انظر: «قصص الأنبياء» للسعدي (ص ١٨٣).

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سُورَةُ الشُّورَىٰ].

فتأمَّل ـ يا رعاك الله! ـ كيف قدَّم ذكر الإناث؛ لأنَّ أهل الجاهليَّة كانوا يؤخِّرون أمر البنات، حتَّىٰ إنَّهم كانوا يئِدونَهنَّ[1].

وفي هذا الزَّمن صار كثيرٌ من النَّاس يتذمَّر من البنات، بل قد يطلِّق زوجَه لأنَّها تلِدُ البنات، وهذه خصلةٌ ذميمةٌ من خصال الجاهليَّة. قال تعالىٰ في ذمِّهم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ].

---

(١) «تحفة المودود بأحكام المولود» (ص ١٧).

مع أنَّ الإناث في تربيَتهنَّ أجرٌ عظيمٌ؛ ففي «صحيح مسلم» من حديث أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّىٰ تَبْلُغَا؛ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ كَهَذَا**» وضمَّ أصبعَيه[1].

وقال صالح بن الإمام أحمد: كان أبي إذا وُلِد لي ابنةٌ يقول: «الأنبياء آباء البنات»، ويقول: «قد جاء في البنات ما قد علمتَ»[2].

ثمَّ إنَّ الأمر ليس بيد النِّساء، بل هو بيد الله ﷻ، يهب ما يشاء من الإناث والذُّكور، وما أجمل ما قالته امرأة ذلك الأعرابي ـ وقد ولدت أنثىٰ ـ، فهجرها لشدَّة غيظه من ولادتها أنثىٰ، فقالت:

مَـا لِأَبِـي حَمْـزَةَ لَا يَأْتِينَـا   يَظَـلُّ بِالْبَيْـتِ الَّـذِي يَلِينَـا

(١) أخرجه مسلم (ح/ ٢٦٣١).

(٢) «تحفة المودود» لابن القيم (ص ٢٠).

غَضْبَانَ أَلَّا نَلِدَ الْبَنِينَا لَيْسَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا شِينَا

وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا

وكفىٰ بالمرء قُبحًا: أن يكره ما رضيه اللهُ له، وأعطاه عبده[1].

ومن اللَّطيف في هذا المقام ما قاله الصَّاحب بن عبَّاد مهنِّئًا بعض أصحابه وقد وُلِد له أنثىٰ: «أهلًا وسهلًا بعقيلة النِّساء، وأمِّ الأبناء، وجالبةِ الأصهار، والأولادِ الأطهار، المبشِّرةِ بإخوةٍ يتناسَقُون، بخِباءٍ يتلاحقون:

فَلَوْ أَنَّ النِّسَاءَ كَمِثْلِ هَذِي

لَفَضُلِّتِ النِّسَاءُ عَلَىٰ الرِّجَالِ

فَمَا التَّأْنِيثُ بِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ

وَلَا التَّذْكِيرُ فَخْرٌ لِلْهِلَالِ

---

(١) «أضواء البيان» للأمين الشنقيطي (٢/ ٣٩٠).

فادَّرِعْ ـ يا سَيِّدي! ـ اغْتِباطا، واستأنِفْ نشاطا، فالدُّنيا مؤنَّثة، ومنها خُلِقت الذُّرِيَّة. والسَّماء مؤنَّثة، وقد زُيِّنت بالكواكب، وحلِّيَتْ بالنَّجم الثَّاقب. والنَّفس مؤنَّثة، ولولاها لم تتصرَّف الأجسام، ولا عرف الأنام. والجنَّة مؤنَّثة، وبها وعد المتَّقون، ولها بعث المرسلون، فهنيئًا لك ما أُوليت، وأَذْرَعك اللهُ شكرَ ما أُعطيت، وأطال الله بقاءك، ما عرف النَّسل والولد، وبَقِيَ الأَمَد، وكما عُمِّرَ لُبَد»[1].

ولأمير الشُّعراء أحمد شوقي:

أَأَبَا الْبَنَاتِ رُزِقْتَهُنَّ كَرَائِمَا

وَرُزِقْتَ فِي أَصْهَارِكَ الْكُرَمَاءِ

لَا تَذْهَبَنَّ عَلَىٰ الذُّكُورِ بِحَسْرَةٍ

الذِّكْرُ نِعْمَ سُلَالَةُ الْعُظَمَاءِ

(١) «قصص العرب» (١/ ٩٣).

وَأَرَىٰ بُنَاةَ الْمَجْدِ يَثْلِمُ مَجْدَهُمْ

مَا خَلَّفُوا مِنْ طَالِحٍ وَغُثَاءِ

إِنَّ الْبَنَاتِ ذَخَائِرٌ مِنْ رَحْمَةٍ

وَكُنُوزُ حُبٍّ صَادِقٍ وَوَفَاءِ

وَالسَّاهِرَاتُ لِعِلَّةٍ أَوْ كَبْرَةٍ

وَالصَّابِرَاتُ لِشِدَّةٍ وَبَلَاءِ

وَالْبَاكِيَاتُكَ حِينَ يَنْقَطِعُ الْبُكَا

وَالزَّائِرَاتُكَ فِي الْعَرَاءِ النَّائِي

وَالذَّكِرَاتُكَ مَا حَيِينَ تَحَدُّثًا

بِسَوَالِفِ الْحُرُمَاتِ وَالْآلَاءِ[1]

٥. قولها كما في الآية الكريمة: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اسْتُدِلَّ به علىٰ تسمية

---

(١) «الشَّوقيات» شعر أحمد شوقي (٣/ ٨).

المولود يوم يولَد، وكما ثبت في «الصَّحيحين» عن أنس ابن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في ذهابه بأخيه إلىٰ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحنَّك أخاه وسمَّاه: عبد الله[1]، وجاء في حديث الحسن بن سَمُرة مرفوعًا: «**كُلُّ غُلَامٍ رَهِينَةٌ بِعَقِيقَتِهِ، تُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَيُسَمَّىٰ، وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ**»[2][3].

والجمعُ بين الخبرين: أنَّ السنَّةَ فِي التَّسميةِ أَنْ تَكُونَ في اليوم السَّابع، ويجوز تسميته في اليوم الأوَّل[4]، وقد تَقَرَّرَ في عِلْمِ الْأُصُولِ أنَّ الجمع بين الأدلَّة واجبٌ، كما عقده في الْمَرَاقِي بقوله:

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٥٤٧)، ومسلم (ح/ ٢١٤٤).

(٢) أخرجه محمد (ح/ ٢٢)، وأبو داود (ح/ ٢٨٣٧)، وابن ماجه (ح/ ٢٨٦٥) وغيرهم.

(٣) «قصص الأنبياء» لابن كثير (ص ٤٧٧).

(٤) انظر «تحفة المولود» (ص ٧٨).

وَالْجَمْعُ وَاجِبٌ مَتَىٰ مَا أَمْكَنَا

إِلَّا فَلِلْأَخِيرِ نَسْخٌ بُيِّنَا[1]

وهنا تعارض فعله كما في خبر أنس المتقدِّم، وقوله الوارد بصيغة الأمر كما في خبر الحسن بن سمرة، والنَّبيُّ ﷺ قد يأمر بالشَّيء ثمَّ يفعل خلافه، أو ينهىٰ عن الشَّيء ثمَّ يفعله؛ ليبيِّن للأمَّة أنَّ ما أَمَرَ به ليس علىٰ سبيل الوجوب، بل هو علىٰ سبيل الاستحباب، وما نَهَىٰ عنه ليس علىٰ سبيل التَّحريم، بل هو علىٰ سبيل الكراهة، فيكون فِعْلُهُ صَارِفًا للأمرِ أَوِ النَّهْيِ عن حقيقتهما الإيجاب والتَّحريم، وعَقَدَهُ الْعَلَوِيُّ في «الْمَرَاقِي» بِقَوْلِه:

وَرُبَّمَا يَفْعَلُ لِلْمَكْرُوهِ

مُبَيِّنًا أَنَّهُ لِلتَّنْزِيهِ

(١) «مراقي السَّعود ـ مع نشر البنود» للعلوي (٢/ ٢٧٩).

فَــصَـارَ فِي جَانِــبِهِ مِــنَ الْـــقُرَبِ

كَالنَّهْيِ أَنْ يُشْرَبَ مِنْ فَمِ الْقِرَبِ[1]

٦. فِي قولها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦﴾: حصَّنتها بالله من الشَّيطان الرَّجيم، وهذه أوَّل وقايةٍ لها، وهكذا ينبغي للأولياء والأمَّهات أن يدعوا لأولادهم بأن يعيذَهم اللهُ من الشَّياطين ـ شياطين الجنِّ والإنس ـ، لا أن يدعوا عليهم بالشَّرِّ وعدم الفلاح؛ فإنَّ شرَّهم عائدٌ إليهم، وفي حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النَّبِيِّ ﷺ: «**لَا تَدْعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَىٰ أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَىٰ أَمْوَالِكُمْ؛ لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبَ**»[2]، وانظر إلىٰ نساء اليوم كيف يتفنَّنَّ في أنواع الدَّعوات علىٰ أولادهنَّ،

(١) «مراقي السَّعود ـ مع نشر البنود» للعلوي (٢/ ١٣).

(٢) أخرجه أبو داود (ح/ ١٥٣٢) وغيره.

فيستخرجنَ من ذلك ما يعجز عن قوله البُلَغاء، ويقصر دونه لسان الفصحاء، فهؤلاء ينبغي أن يتعلَّمن خُلُق الصَّالحات وجميل الدَّعوات: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾، وقد استجاب اللهُ دعاء امرأة عمران، كما ثبت في «الصَّحيحين» من حديث أبي هريرة أنَّه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ، غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا**»، ثمَّ يقول أبو هريرة: اقْرَؤُوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾[1]، ويدلُّ لهذا أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾.

٧. في قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾: في هذه الآية فائدةٌ عظيمةٌ للآباء عمومًا، وللأمَّهات

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٣٤٣٢)، ومسلم (ح/ ٢٣٦٦) وغيرهما.

خصوصًا؛ وهي أنَّ الله قد يمنُّ علىٰ العبد لفرط صلاحه، فيرزقه ذريَّةً صالحةً وينبتها نباتًا حسنًا، كما حصل لامرأة عمران.

ويشهد لهذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]، جاء عن سعيد بن المسيَّب أنَّه كان يقول لابنه: «إِنِّي لَأُضَاعِفُ صَلَاتِي؛ رَجَاءَ أَنْ أُحْفَظَ فِيكَ، وَيَقْرَأُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾»(١).

ويشهد بهذا أيضًا قوله ﷺ في وصيَّة ابن عبَّاسٍ: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ**»(٢)، فحُذِف متعلَّق الفعل، فلم يُقَلْ: «يحفظك في نفسك، أو في مالك، أو في ولدك» بل حذف؛ ليفيد العمومَ، وقد تقرَّر في علم المعاني ـ وكذا

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص ٣٣١).

(٢) أخرجه الترمذي (ح/ ٢٥١٦)، وقال حديث حسن، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (ح/ ٥٧).

في علم الأصول[1] ـ أنَّ حذف المتعلَّق يفيد العموم، قال الأخضري في نظمه:

وَيُحْذَفُ الْمَفْعُولُ لِلتَّعْمِيمِ
وَهُجْنَةٍ فَاصِلَةٍ تَفْهِيمِ[2]

فيا من يريد أن يحفظ اللهُ عليه أولادَه، عليك بحفظ الله في حدوده وأوامره.

٨. ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاءَ﴾: هذه منَّةٌ عظيمة من الله على العبد أن يكون في كفالة الصَّالحين الأخيار؛ فإنَّ المُربِّي والكافلَ له الأثرُ العظيم في حياة المكفول وأخلاقه وآدابه، ولهذا أمر الله المُربِّين بالتَّربية الطَّيِّبة المشتملة على الحثِّ على الأخلاق الجميلة، والتَّرهيب من مساوئ

(١) وبحث فيه الزَّركشي بأنَّ ذلك إنَّما يستفاد من القرينة الدَّالَّة على أنَّ المقدَّر عامٌّ. انظر: «إرشاد الفحول» (ص ٢٢٩).
(٢) «الجوهر المكنون» للأخضري (ص ١٠٩ ـ حاشية المنياوي).

الأخلاق[1].

وهكذا كانت تلك المولودة في قمَّة الصَّلاح والعفَّة ـ إنَّها مريم البتول عليها السَّلام وعلىٰ ابنها أفضل السَّلام ـ، وذلك لتلك العوامل الَّتي تقدَّم بيانها: من الدُّعاء لها، والحرص علىٰ صلاحها قبل ولادتها، وبعد ولادتها، وتمام النِّعمة والمنَّة بأن صارت تحت كفالة نبيٍّ من الصَّالحين، وهو زكرياء عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فهذه منَنٌ علىٰ منَنٍ، ونِعَمٌ بعدها نِعَمٌ، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العلي العظيم.

❐❐❐

(١) «قصص الأنبياء» للسعدي (ص ١٩٢).

الخاتمة

فيا لله ما أعظمَ هذا القرآن الكريم، وما أعظم هدايته للبشر، ولكنَّهم عنه غافلون، وله هاجرون تاركون، فحلَّت بهم التَّعاسةُ، ونزلت بهم الشَّقاوة، وكانوا بذلك كالحمار يحمل أسفارًا.

فاحذر ـ يا من أكرمه اللهُ بهذا القرآن الكريم! ـ أن يكون حظُّك منه كحظِّ الحمار من الأسفار؛ تقرأ مبانيه ولا تفقه معانيه. تقيم حروفه وتضيِّع حدوده. تحمله بين يديك، ثمَّ يكون حجَّةً عليك. لا أنت في قصصه تتأمَّل، ولا لهديه تتمثَّل.

بل اجعل عنايتكَ بهذا الكتاب المبارك فوق كلِّ عنايةٍ، ورعايتك لهذا الذِّكر الحكيم فوق كلِّ رعايةٍ، ففيه حياتُك؛ فلتَعمُر به حياتك، وفيه ذكرك فاجعله ذكرَك، وهو موعظة نفسك، وشفاء سُقْمك، وطمأنينة قلبك، ورحمة من الله إليك، وبركةٌ منه عليك؛ إنَّه نورُك وروحك، وقرآنك وكتابك، ودليلك في طريقك، وفرقانك في سبيلك، وسراجك في دنياك، ونجاتك في أخراك، قال الحق تبارك وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الأنبياء]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة يونس]، وقال سبحانه:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ
تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سُورَةُ الرَّعۡدِ]، وقال سبحانه: ﴿ وَهَٰذَا
كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾
[سُورَةُ الأَنۡعَامِ]، وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ
أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي
بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ ﴾
[سُورَةُ الشُّورَىٰ]، وقال سبحانه: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ
مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾ [سُورَةُ النَّمۡلِ]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ
يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ
لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴿٩﴾ ﴾ [سُورَةُ الإِسۡرَاءِ]، وقال سبحانه: ﴿ تَبَارَكَ
ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾
[سُورَةُ الفُرۡقَانِ]، وقال سبحانه: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ
وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ

لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
(١٢٢)﴾ [سُورَةُ الأَنۡعَامِ]، وقال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ
رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ
وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (٣٥) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ
أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٦)﴾ [سُورَةُ الأَعۡرَافِ].

فارجع ـ أيُّها النَّاظر النَّبيه! ـ بتلك الجمل المسطورة، إلىٰ هذه الآيات المذكورة؛ ينقدح لك نورٌ جليٌّ، وعلمٌ زكيٌّ، إن أنتَ ما أُغفلت في ذلك عن طرائق الخصوص والعموم، والمنطوق والمفهوم.

❒❒❒

اللَّهم اجعل الكتابَ المبارك حجَّةً لنا لا علينا.

اللَّهم علِّمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نُسِّينا.

اللَّهم علِّمنا التَّأويل، وفقِّهنا في الدِّين.

اللَّهم افتح علينا من حكمتك، وانشر علينا من رحمتك.

والحمد لله أوَّلًا وآخرًا.

وصلِّ اللَّهم علىٰ عبدك الأمين محمَّد بن عبد الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه إلىٰ يوم الدِّين.

وكتب

الفقير الضَّعيف عبيد الله:

مراد بن أحمد عطاسي

ستر الله عليه عيبه وغفر له ذنبه